الفصل الثالث
الاتجاه الشمولي التأويلي

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث
الاتجاه الشمولي التأويلي

تمهيد:

اتجهت بعض البحوث النقدية العربية المعاصرة في دراسة النقد العربي القديم وجهة تنطوي على فكرة تدعو باحث التراث النقدي إلى أن يدرسه في ضوء معطياته النوعية المنبثقة عنه المصاحبة له أو المقترنة به، بأبعادها المتعددة وطاقاتها الفعالة؛ لتقديمه إلى المتلقي على نحو متكامل جاذب لذائقته.

وبعبارة أخرى تدعو الباحث إلى: أن يتناول جميع الكتابات النقدية والبلاغية والإبداعية الخاصة بفرد أو أكثر، وذلك لفحصها، "من حيث هي مستوى من مستويات نص متكامل"[١]، تشتمل على نظرات سياسية، وأفكار اجتماعية، وتطورات دينية، وممارسات إبداعية؛ حتى يستطيع من خلال هذا النص المتكامل أن يدرك "الدلالات الأساسية التي تتسرب في كل من مستوياته، والتي لا يمكن فهم دلالة أي مستوى من هذه المستويات إلا من حيث علاقته بهذه الدلالات الأساسية"[٢].

---

(١) د.جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، دار سعاد الصباح، ط(١) ١٩٩٢، ص١٧٩، ومجلة فصول ديسمبر ١٩٨٥، ص١٠٠.

(٢) السابق: ص١٧٩-١٨٠.

obeikandl.com

وتسمى الوجهة النقدية في هذه الحالة باسم "الوجهة الشمولية"، التي تستخلص منها محاور دراسية عديدة منها: الأنساق المعرفية"، و"السياقات النوعية"، و"الإنصاف الموضوعي"، و"التبرير الضروري"، و"الإفادة الحتمية".

ففي المحور الأول، وهو "الأنساق المعرفية"- توظف مجموعة الأنساق أو النظم المعرفية عند دراسة التراث النقدي، بغرض قراءته بدقة، على أساس أن هذه الأنساق عناصر فعالة، "تتوسط ما بين القارئ والمقروء وتحيط بهما"[١]، وأنها أبنية لا شعورية للثقافة"[٢]، وأنها إلى جانب ذلك تمثل مجموعة مترابطة من أبنية المقولات التي تحكم الوعي الجماعي للمجموعات القارئة المستقبلة للنص، والوعي الجماعي للمجموعات المنتجة له، والتي تتحكم في قدراتهم القرائية والإنتاجية وتوجهها"[٣].

فعند دراسة النصوص البلاغية والنقدية والإبداعية لناقد مبدع كعبد الله بن المعتز[٤] مثلاً في ضوء هذا المفهوم -يتبين لنا أن هذه

---

(١) د. جابر عصفور: مقدمات منهجية، ضمن "قراءة جديدة لتراثنا النقدي"، ١٥٢/١، وقراءة التراث النقدي، ص٧٣.

(٢) د. محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، ص٣٧، ضمن "قراءة جديدة لتراثنا النقدى"، ١٥٥/١.

(٣) مقدمات منهجية: "قراءة لتراثنا النقدى، ١٥٦/١.

(٤) مثل دراسة د.جابر عصفور "قراءة محدثة في ناقد قديم: ابن المعتز: قراءة التراث النقدي، ص١٧٨ وما بعدها.

الأنساق "ليست إلا شفرات Cods شارحة، تعني أمرين: "أولاً ما هو حاضر للنص المقروء لابن المعتز على سبيل المثال- يشير إلى ما هو غائب عنه على مستوى التشابه الذي يصل النص بنسقه الأوسع، حيث رؤية محددة للعالم هي الرؤية النقلية، التي كانت تصل ابن المعتز بفكر الحنابلة، وعلى مستوى التضاد الذي يصل الرؤية بأنساق معارضة حيث العقل الكلامي- المعتزلة، والبرهاني- الفلاسفة، وقل الشيء نفسه عن أي قراءة في عصرنا لابن المعتز، حيث تتناص القراءة تناص السلب والإيجاب مع الأنساق المضادة أو المتشابهة لقراءات أخرى معاصرة أو سابقة، ثانيًا: أن الفاعلية المتجاوبة لكل من القارئ والمقروء داخل أنساقها تتداخل في مجال معرفي تداخل التوسط الذي يجمع بينهما"[١].

وفي إطار هذه الرؤية جاءت دراسة معاصرة للبلاغة العربية[٢]؛ باعتبارها نظامًا أو نسقًا جماليًا، عمل الباحثون القدامى على تحسينه؛ ليواجه نظامًا أو نسقًا لغويًا آخر أساسه البحث عن الحقيقة، ينادي به الفلاسفة ويدعمونه.

---

(١) السابق: ص١٥٦.

(٢) د. مصطفى ناصف: "بين بلاغتين"، قراءة جديدة لتراثنا النقدي، ٣٨١/١.

فبلاغة الجاحظ – مثلاً– تتسم بالأسلوب الفضفاض الذي يهدف إلى إثارة العواطف والإمتاع النفسي، وهو يواجه لغة الفلاسفة التي تتسم بالتصفية والدقة[١].

ويترتب على توظيف هذه الأنظمة أو الأنساق المعرفية لدراسة التراث النقدي، ظهور معنى "هو من إنتاج القارئ والمقروء معًا، وينسب إليهما على المستوى الوجودي (الأنطولوجي)، والمعرفي (الأبستمولوجي) في آن"[٢].

ويتحدد هذا المعنى في امتلاك الدارس رؤية خاصة؛ تتيح له دراسة أي أثر نقدي (أو إبداعي) لها مواصفاتها التي توجهه إلى ملاحظة "السياقات" التي تحيط بهذا الأثر أو ذاك.

ويتعين المحور الثاني "السياقات النوعية" في دراسة الإنتاج النقدي التراثي دراسة غير معزولة عن التيارات الفكرية والدينية والسياسية والفنية المتصلة به، سواء أكان هذا الاتصال قريبًا أم بعيدًا؛ ليمكن الوعي بقدراته، والإحاطة بإمكاناته، وتفسير الغامض فيه، وتأويل ما يشكل على المتلقي منه.

---

(١) السابق: ص٣٨٨، وقد عدل الجاحظ نفسه من نظامه عندما تعامل مع النص القرآني الكريم؛ فالتزم الدقة والتصفية، ولذلك يمكن القول بأن للبلاغة نظامين: أولهما يختص بالشعر، والآخر يعني بالدرس القرآني. المرجع السابق: ص٣٩٢، ٣٩٤.

(٢) د.جابر عصفور: مقدمات منهجية، ص١٥٦.

وفي هذا الإطار جاء ربط الفكر البلاغي والنقدي بالسياق المعرفي "الأيستمولوجي"، فلوحظت إفادات المعاصرين من عدة سياقات. منها:

أ- السياق اللغوي: المرتبط بالعرف الاجتماعي عند دراسة الفن الشعري، من حيث إنهم كانوا "يضعون القيود العنيفة أمام الشاعر، ولا يكادون يبيحون له استعمال ألفاظ وأساليب غير عصرية مثل "الغريب". وهكذا كان الشعر خاضعًا لقواعد في الدلالات والتركيب، وتصور الأشياء. ومن الواضح أن هذا كله شديد الارتباط بوظيفة الشعر واتصالها في رأيهم بالعرف الاجتماعي"[١]، على نحو ما يعكسه جانب من دراسة عبد القاهر في دلائل الإعجاز لفن الشعر، فنظراته فيه قد "أفادت من التأملات النظرية والعملية، التي نجد أصداءها في التفاسير وعلم أصول الفقه"[٢]؛ فدفعه ذلك إلى "التشكيك" في أفكار كثيرة عولج بها كل من الشعر واللغة، ومنها فكرة "قصر البلاغة على الزينة"، متأثرًا في ذلك "بنظرة علماء الأصول

---

(١) د. مصطفى ناصف: بين بلاغتين، مرجع سابق: ٣٩٨/١.

(٢) السابق: ص٣٩٩.

والتفسير إلى اللغة، من حيث هي وظيفة أكثر حيوية وأهمية من فكرة الزينة"[١].

ب- السياق التاريخي: من حيث إن للتراث دلالة أساسية تأتي قبل كل دلالة أخرى، هي أنه: إبداع تاريخ مضى، أعطى من المنجزات العلمية والثقافية والحضارية في سياق تاريخي معين، وفي تفاعل مع توجهات وأهداف معينة..."[٢]. ويمنح – الوعي بهذا السياق- "خصوصية " للأمة الإسلامية، وبعدًا حقيقيًا لشعورها بالهوية الحضارية؛ فيتحقق من ثم الطموح في إيجاد الجسور للعبور من الحاضر إلى المستقبل، بنفس الدينامية الخلاقة، والصيرورة المبدعة، والتماسك في الهوية الأخرى المتحركة في المجال الحضاري العام"[٣].

بناءً هذا يمكن فحص حركة الثنائيات المتضادة في النقد الأدبى في العصر العباسي مثل "القدماء والمحدثين"، و"العقل

---

(١) السابق: ص٣٩٩.

(٢) د. محمد الكتاني: "تراثنا النقدي بين الرؤية والإعجاز"، قراءة جديدة لتراثنا النقدي، ٤٢٤/١.

(٣) السابق: ص٤٢٥.

والنص" و"اللفظيين والمعنويين"، و"الاتباع والابتداع" وغيرها؛ ذلك أن الوعي بهذه الثنائيات متوقف على مراعاة السياقات التاريخية لها.

ج- السياق الفني: من حيث ملاحظة "طريقة المحدثين" مثلاً التي انسربت في أشكال الإبداع وأجناس الأدب المختلفة؛ فتولدت طريقة للمحدثين في الشعر (مع بشار وأبي نواس وأبي تمام وأقرانهم)؛ على نحو ما ظهر فى آراء الصولى وسواه[١] لتجاوز نقيضها التقليدى الذي تمثله "طريقة القدماء"[٢]، أو عمود الشعر الذى تبناه أبو عمرو بن العلاء، والأصمعى، ومحمدبن سلام الجمحى، وابن قتيبة، وابن طباطبا العلوى، وقدامة بن جعفر[٣]. فدراسة التراث النقدي في ضوء هذه السياقات وغيرها تعينه على تفسير نصوصه وتأويلها وإنصافها.

المحور الثالث: "التبرير والتأويل"، يراد به التماس الوجوه التي تتوافق مع المفهوم الذي يعمل من خلاله، وفي إطاره هذا الناقد أو

---

(١) د. حسن البندارى: قيم الإبداع الشعرى فى النقد العربى القديم، ط(١)، الأنجلو المصرية، ١٩٩٩م، ص١٨٠.

(٢) د.جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، ص١٨٢.

(٣) عمود الشعر العربى بين الثبات والتحول: مكتبة بورصة، ط(١)، ٢٠١٥

ذاك، وتبدو لدراسي التراث ألوان من ذلك: كالتبرير أو التأويل النفعي، والتبرير الأخلاقي، وتأويل التعارض الفني، وتبرير الهدم وغير ذلك.

أ- فالتبرير أو التأويل النفعي، الذي يقصد به مساندة الملك وتسويغ استمراره- جاء في ظل "مفهوم الجبر" الذي يُفضل به ملوك بني العباس على غيرهم، ومفهوم "التقليد" الذي يفرض طاعة بني العباس على من دونهم؛ وهما في الأصل للحنابلة، وتسربا إلى فكر ابن المعتز. هذان المفهومان تحولا إلى فكرة "الحق المقدس في الحكم، وما يترتب عليها من ضرورة طاعة الإمام، برًا كان أو فاجرًا، أو إلى مبرر ديني يستند إليه ابن المعتز في دفاعه الشرعى عن أسرته العباسية في الحكم"[1].

ويأتي تفسير دفاع ابن المعتز لمعرفة مغزاه، بل المغزي الحقيقي "لكثير مما يقوله ابن المعتز نثرًا في كتاباته، خصوصًا حين يؤكد أن "الملك بالدين يبقى، والدين بالملك يقوى" بالمعنى التأويلي الذي ينطوي معه المعنى السياسي بالحكم العباسي على تصديق اعتقادي بشعارات حنبلية يطبقها ابن المعتز في صيغ من قبيل:

---

(١) د.جاب عصفور: قراءة التراث النقدي، ص١٩٥، ١٩٦.

"القدر يختار ولا يختار عليه"، و"للأقدار الاختيار علينا، وفيها الخير لنا من حيث ندري ولا ندري"[١].

ب- والتبرير أو التأويل الأخلاقي يبدو في أن ابن المعتز ساق لنا تبريرًا يتعلق بوعي طبقته "الذي يسقط نفسه على مفهوم العلم"، ويبرر أخلاق الترف المتمثلة في "أبهة الملوكية"، التي تفرض التوسط في طلب اللذة بمبدأ هو: "التوسط زين العمل"، مؤكدًا بذلك "الحق الملوكي في ممارسة بعض ضروب اللذة الحسية"، ومتذكرًا في نفس الوقت مواقف تاريخية ودينية" تبيح ممارسة بعض أنواع اللذة: فأهل الحرمين حرموا النبيذ وأطلقوا الغناء، وفقهاء العراق أطلقوا النبيذ وحرموا الغناء؛ ففي بعض ذلك التناقض ما يفيد ابن المعتز الذي يأخذ من الرأيين أهونهما، وهو الإباحة في السماع والشراب"[٢]. وبهذا المنهج التأويلي فرق ابن المعتز بين "المجون والزندقة"[٣].

ج- وتبرير التعارض بين النظم والمجاز يجيء في دراسة محاولة عبد القاهر الجرجاني حل التعارض بين هذين المفهومين،

---

(١) السابق: ص١٩٧، ١٩٨.

(٢) السابق: ص٢٠١-٢٠٢.

(٣) السابق: ص٢٠٥.

ذلك أنه "جعل مفهوم النظم يستوعب في داخله "المجاز"، ولكنه – حصرًا لهوّة الخلاف بينه وبين أسلافه– يعترف بنوع من الحسن المستقل للمجاز بأنماطه المختلفة"[١].

د– ويتجلى تأويل الهدم وتبريره في إعادة بناء ما تم هدمه من أفكار سابقة تتعلق بظاهرة أو قضية نقدية ما، وهذه وسيلة تأويلية تتجلى في البناء الفكري لعبد القاهر الجرجاني، الذي مارسها ودعا غيره إلى اتباعها.

وبما أن هذا الناقد قد أعاد قراءة أسلافه بهذه الوسيلة فإنه ينبغي على البحث المعاصر أن يراعى هذه الوسيلة حين يقرأ التراث بما فيه تراث عبد القاهر. وإذا كان قد مارس هدم أفكار سابقيه، ثم عمد إلى بنائها– فإن علينا أن نفسر ونؤول النصوص على هذا الأساس، وذلك بفحص بعض المعالجات أو المفاهيم النقدية؛ بغرض هدم بنائها أو تحليله، ثم إعادة تشكليه لإثبات مفاهيم أصح وتصورات أعمق، ذلك أن عبد القاهر لم يطرح مفاهيمه على مائدة الفحص إلا

---

(١) د. نصر أبو زيد: مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، فصول ع ديسمبر ١٩٨٤، ص٢١.

obeikandl.com

لغرض هو "نفي المفاهيم والتصورات السابقة التي تتناقض مع مفاهيمه وتصوراته"[١].

ويتمثل المحور الرابع: "الإفادة الحتمية من الآخر" في أن دعاة هذا الاتجاه يرون ضرورة أن يعتمد الباحث المعاصر حال دراسته التراث النقدي- على الآخر، أو الفكر الأجنبي؛ لتقديم صورة مثالية لملامحه. وسبيلهم إلى ذلك أن أسلافنا قد دعوا إلى الإفادة، بل شددوا عليها حين عانوا من أجل التوصل إلى معارف أمم انضوت تحت لواء الدول الإسلامية الفتية، أو ارتبطت بها بعلاقات سلام ومودة، أو علاقات حروب وعداء.

وهذا التصور قد تمكّن من أذهان هؤلاء الدعاة؛ فنبهوا إلى أهمية النهل من الفكر العالمي: أدبه ونقده، فمنهم من أشار إلى تشابه مذهب عبد القاهر الجرجاني مع مذهب العالم السويسري فردينان دي سوسير المتوفى في عام ١٩١٣[٢]، وبعضهم رأى أن التراث اللغوي العالمي النابع من " فردينان دي سوسير" – هو جزء من التراث اللغوي، كما تبلور في عمل ناقد فذ هو عبد القاهر، الذي

---

(١) السابق: ص١٣.

(٢) د. محمد مندور: النقد المنهجي، ص٣٣٤.

obeikandl.com

تعتبر آراؤه سابقة على آراء ناقد حديث معاصر هو ريتشاردز[١]، على حين يقر بعضهم أن قراءة النقد الفرنسي الحديث هي التي دلتني على حداثة النظر النقدي عند الجرجاني، خصوصًا كل ما يتعلق بالشعرية، وخاصيتها اللغوية التعبيرية[٢].

فمعرفة باحثي التراث النقدي بالفكر الآخر لازمة وضرورية، لاسيما أن بعض أفكار الأدب العالمية – كما هو معروف الآن– تشتبك به وتتداخل معه، وأن حدوثه في وعينا "يجعل من حضورهما حضورًا متبادلاً، على نحو تغدو معه كل قراءة للتراث قراءة للآخر وكل قراءة للآخر قراءة للتراث فى الوقت نفسه، إذ بقدر ما يؤثر التراث فى تعرفنا الآخر وإدراكه فإن الآخر بدوره يؤثر في تعرفنا التراث وإدراكه"[٣].

والواقع أن المكتسبات المنهجية الجديدة يمكن أن تسهم في استخلاص قيم نقدية جديدة من التراث النقدي، "ولا سيما علم اللسانيات"[٤]، وعلم اللغة الذي ينظر إلى اللغة على أنها حدث اتصالي يمكن تطبيقه على التراث، وهذا يعني فحص النصوص

---

(١) د. كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي– بيروت، ط(٧٩) ص٢٢.

(٢) أدونيس: الشعرية العربية– بيروت، ١٩٨٥، ص٨٦، ٨٧.

(٣) د. جابر عصفور: مقدمات منهجية، ص١٨٠.

(٤) د. حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب– تونس ١٩٨١، ص١١، ص١٣٣.

النقدية، وغيرها من نصوص التراث؛ بوصفها "شكلاً من أشكال الاتصال حسب النموذج البنيوي"[١]، الذي يستند إلى مفهوم جاكوبسون Jakobson عن آليات الاتصال الخاصة بالحدث اللغوي"[٢].

ولعل هذا ما دعا إلى إعادة قراءة نظرية عبد القاهر في "الصورة الشعرية"؛ للتعرف على رؤيته النقدية، التي تعد مدخلاً فذًا إلى "بنية اللغة التعبيرية بوجه عام، والصورة الشعرية بوجه خاص"[٣]؛ لأنها –أي الرؤية– تهتم بعمق بالبنية الشعرية؛ "حيث يجري عنده التركيز على القصيدة بوصفها نسقًا من علاقات لغوية دالة"[٤].

كما دفع الوعي بقيمة الاتصال الثقافي إلى الاستعانة بآراء كل من فردينان دي سوسير وتشومسكي؛ عند دراسة تفرقة عبد القاهر بين (اللغة) و(الكلام)، خاصة أن هذين الباحثين تناولا تفرقة مشابهة، وهي التفريق بين (الكفاءة) و(الأداء)[٥].

---

(١) المرجع السابق: ص١٣٣.

(٢) المرجع السابق: ص ١٣٣.

(٣) د. كمال أبو ديب: نظرية الجرجاني في الصورة الشعرية، ص ١٣٤.

(٤) المرجع السابق: ص١٣٤.

(٥) د. نصر أبو زيد: مفهوم النظم عند عبد القاهر، ص١٤.

فالإفادة من أفكار أو مناهج أو اتجاهات "الآخر" أيًا كان وطنه تعتبر مطلبًا أساسيًا؛ لاستكمال وعينا بتراثنا النقدي، ولإلقاء المزيد من الضوء على قدراته الكامنة فيه. خاصة إذا اعتقدنا بأن هذه الإفادة ليست إلا استعارات نوعية، "لأدوات ضرورية لا سبيل إلى الاستغناء عنها، أو تجاهلها، أو الجهل بها في تطوير كل معرفة قائمة بالتراث، أو إنتاج معرفة جديدة عنه على الأقل، إلى أن تستطيع ثقافتنا أن تصل إلى الطور الذي يمكنها من الإنتاج الذاتي لمثل هذه الأدوات"[١].

ولكن البحث المعاصر من جهة أخرى يسوق تحذيرًا من تسلط مناهج لا تناسب تراثنا، أو فرض "إشكاليات عليه مجافية له"[٢]؛ فننشغل بها عنه، وهذا يعني أن على الباحث المعاصر أن يلزم الحذر من مثل ذلك، وأن يعمد إلى تحقيق "توازن" بين إمكانيات النص النقدي التراثي، وبروق الفكر الأجنبي التي ربما تكون خادعة أو مضللة؛ فتبعد الباحث بذلك عن طاقات هذا النص أكثر مما تقربه منها.

---

(١) د. جابر عصفور: مقدمات منهجية، ص١٨٢.

(٢) المرجع السابق: ص١٨٢.

obeikandl.com